

٤ - بلاط الشهداء

بعد ألف ومائتي عام

للأستاذ محمد عبد الله عنان

الشاعر الانجليزى سودى يقول فى منظومته عن ردرىك آخر ملوك القوط :

« جمع لا يحصى ، من شام وبربر وعرب وروم خوارج . وفرس وقبط ووتر عصبه واحدة . يجمعها ايمان هائم راسخ الفتوة . وحمة مضطربة واخوة مروعة . ولم يك الزعماء . أقل ثقة بالنصر . وقد شمعوا بطول ظفر . يهيمون بتلك القوة الجارفة . التى أيقنوا أنها كما اندفعت . حيثما كانوا بلا منازع ستندفع ظافرة الى الامام حتى يصبح الغرب المغلوب كالشرق . يطأ طيء الرأس اجلالا لام محمد . وينفض الحاج من اقاصى المنجم . ليبدأ باقدام الايمان الرمال المحرقة . المنتثرة فوق صحراء العرب واراضى مكة الصلدة » (١)

وفى عهد عبدالرحمن فى جيشه الزاخر الى فرنسا كما قدمنا فى ربيع سنة ٧٣٢ م (أوائل سنة ١١٤ هـ) واقبحم وادى الرون وولاية اكوئين وشتت قوى الدوق أودو طبق ما أسلفنا ، وأشرف بعدها السير الباهر على ضفاف اللوار . وتقول بعض الروايات الكنسية أن أودو هو الذى استدعى عبدالرحمن الى فرنسا ليعاونه على محاربة خصمه « كارل مارتل » (٢) . ولكن هذه الرواية مردودة غير معقولة لما قدمنا من أن أودو هو الذى بادر الى مقاومة عبدالرحمن ورده ، وكانت مملكته وعاصمته أول غنم للمسلمين . وكان ملك الفرنج يومئذ تيودريك الرابع ، ولكن ملوك الفرنج كانوا فى ذلك العصر أشباحا قائمة فقط . وكان محافظ القصر كارل مارتل هو الملك الحقيقى يستأثر بكل سلطة حقيقية وعليه يقع عبء الدفاع عن ملكه وأمه ، وكان منذ استفحل خطر الفتح الاسلامى يتخذ اهبة ويحشد قواه ، ولكن عبد الرحمن نفذ الى قلب فرنسا قبل ان يتحرك للقائه . وترد الرواية الاسلامية هذا البطء الى خطة مرسومة مقصودة فتقول فى هذا المواطن « فاجتمعت الفرنج الى ملكها الاعظم قارله وهذه سمة ملوكهم ، فقالت له ما هذا الخزي الباقى فى الاعقاب ؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطاع الشمس حتى أتوا من مغربها وأستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد يجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لادروع لهم . فقال لهم ما معناه : الراى عندى ألا نعترضوهم فى خرجتهم هذه ، فانهم كالسيل يحمل من يصادره ، وهم فى اقبال أمرهم ، ولهم نيات تغى عن كثرة العدد ، وقلوب تغى عن حصانة الدروع ، ولكن أمهاوهم حتى تمتلى أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا فى الرئاسة ويستعين بعضهم ببعض ، فيحيثئذ تتمكنون منهم بايسر

وبينما قامت الدولة الاسلامية ثابتة وطيدة الدائم ، وقامت فى جميع أقطار الخلافة حكومات محلية قوية ومجتمعات اسلامية مستنيرة ، وجيوش غازية منظمة ، اذا بمجتمع القبائل الجرمانية غزاة رومة من الشمال ما يزال اذا استثنينا مملكة الفرنج على حالته من البداوة والتجوال والفرق . وكان الفرنج هم قادة القبائل الجرمانية فى هذا الصراع الذى نشب فى سهول فرنسا وأذن طوره الحاسم بعبور المسلمين الى فرنسا فى ربيع سنة ٧٣٣ ، وكان سيل الفتح الاسلامى يندرج باجتياح فرنسا منذ عشرين عاما اعنى مذبحر المسلمون جبال البرنيه بقيادة موسى بن نصير لأول مرة واستولوا على سبتيمانيا ثم اقتحموا بعد ذلك وادى الرون واكوئين أكثر من مرة . ولكن مملكة الفرنج كانت يومئذ تشغل بالمعارك الداخلية وتقتل حول السلطان والرياسة حتى ظفر كارل مارتل بمنصب محافظ القصر ، وأنفق اعواما أخرى فى توطيد سلطانه ؛ بينما كان خصمه ومنافسه أودو أميراً كويتين يتلقى وحده ضربات العرب . فلما استفحل خطر الفتح الاسلامى وانساب نحو الشمال حتى بورجونيا منذ ولاية الهيثم فرع الفرنج وهبت القبائل الجرمانية فى أوستراسيا ونوستريا لتدود عن سلطانهما وكيانهما .

وكان الخطر داهما حقيقيا فى تلك المرة لان المسلمين عبروا البرنيه عندئذ فى اكبر جيش حشد واتم أهبة اتخذت منذ الفتح . وكان على رأس الجيش الاسلامى قائد وافر الهمة والشجاعة والبراعة هو عبدالرحمن الغافقى وهو أعظم جندى مسلم عبر البرنيه . وكان قد ظهر ببراعته فى القيادة منذ موقعة تولوشة حيث استطاع انقاذ الجيش الاسلامى من المطاردة عقب هزيمته ومقتل قائده السمع والارتداد الى سبتيمانيا . وتبالغ الرواية الفرنجية فى تقدير جيش عبدالرحمن وأهفته فتقده باربعائة الف مقاتل ، هذا غير جموع حاشدة أخرى صحبها لاستعمار الارض المفتوحة (١) وهو قول ظاهر المبالغة . وتقدره بعض الروايات العربية بسبعين أو ثمانين الف مقاتل ، وهو أقرب الى الحقيقة والمعقول . بل لقد أثارت هذه الغزوة الاسلامية الشهيرة وهذا الجيش الفخم خيال الشاعر الاوروبى الحديث ، فترى

(١) Southy: Roderick the last of the Goths

(٢) راجع موسوعة Bouquet رواية القديس دنى Vol. III p. 310 - راجع

ايضا موسوعة Bayle تحت كلمة Abderamel

Aschbach: Geschichte-der Omajaden in Spanien I. 670)

امر» (١) ونستطيع أيضا ان نعلل تمهل كارل مارتل بقصده الى ترك خصمه ومناقسه أودو دون غوث حتى يقضى المسلمون على ملكه وساطانه فيتخلص بذلك من منافسته ومناوآته .

وعلى أى حال فان عبد الرحمن كان قد أحجم أكثر من وجوب فرنسا كله ، حينما تاهب كارل مارتل للسير الى لقائه . وجاء الدوق أودو بعد ضياع ملكه وتمزيق قواته يطلب الغوث والنجدة من خصمه القديم أعني كارل مارتل . وكان كارل قد حشد جيشا ضخما من الفرنج ومختلف العشائر الجرمانية المتوحشة والعصابات المرتزقة فيما وراء الرين يمتزج فيه المقاتلة من أمم الشمال كلها ، وجله جند غير نظاميين نصف عراة يتشجعون بجلود الذئاب وتسندل شعورهم الجعدة فوق أكافهم العارية . وسار زعيم الفرنجة في هذا الجيش الجرار نحو الجيوب لملاقاة العرب في حمى الهضاب والربى حتى يفاجئ العدو في مراكره قبل ان يستكمل الاهبة لرده .

وكان الجيش الاسلامى قد اجتاحت عندئذ جميع أراضي أكوئين التي تقابل اليوم من مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبريجور وساتونج وبواتو . واشرف بعد سيره المظفر على مروج نهر اللوار الجنوبية حيثما يلتقى بثلاثة من فروعها «الكريز» «والفين» «والكلين»

ومن الصعب أن نعين بالتحقيق مكان ذلك اللقاء الحاسم في تاريخ الشرق والغرب والاسلام والنصرانية . ولكن المتفق عليه انه هو السهل الواقع بين مدينتي واتيه وتور حول نهرى «كلين» «وفين» فرعى اللوار على مقربة من مدينة تور . والرواية الاسلامية مقلدة موجزة في الكلام عن تلك الموقعة العظيمة وليس فيها لدينام من المصادر العربية عنها أى تفصيل شامل . وإنما وردت تفاصيل للرواية الاسلامية عن الموقعة نقلها لنا المؤرخ الاسبانى كورندى سنعود اليها بعد . وتفيض الرواية الفرنجية والكنسية بالعكس في حوادث الموقعة وتقدم اليناعها تفاصيل شائقة ولكن يحفظها الريب

١٠٠٠ المرقى عن الحجارى فى المسهب «نفع الطيب ج ١ ص ١٢٩ ، - ويورد الحجارى هذه الرواية لمناسبة عبور موسى بن نصير الى فرنسا . ولكن ظاهر من اسم قارله كارل ان الامر يتعلق بالغزوة الكبيرة التى تحدث عنها - والى ترجمتها الرواية الكنسية (راجع جيون - الفصل الثانى والجنسون) حيث يترجم نفس هذه الفقرة فى كلامه عن موقعة تور

وتنقصها الدقة التاريخية . وقد رأينا أن مل وصف الموقعة أولا بالدينا من أقوال الروايتين ثم نورد كلتيهما بعدئذ بتفاصيلها . انتهى الجيش الاسلامى فى زحفه الى السهل الممتد بين مدينتي بواتيه وتور كما قدمنا ، واستولى المسلمون على واتيه ونهوها وأحرقوا كنيستها الشهيرة . ثم هجموا على مدينة تور الواقعة على ضفة اللوار اليسرى واستولوا عليها وخرّبوا كنيستها أيضا . وفى ذلك الحين كان جيش الفرنج قد انتهى الى اللوار دون أن يشعر المسلمون بمقدمه بادىء بدء ، وأخطأت الطلائع الاسلامية تقدير عدده وعدته . فلما اراد عبد الرحمن أن يقتحم اللوار لملاقاة العدو على ضفته اليمنى فاجأه كارل مارتل بجموعه الجرارة . والفى عبد الرحمن جيش الفرنج يفوقه فى الكثرة فارتد من ضفاف النهر ثانية الى السهل الواقع بين تور وبواتيه . وعبر كارل مارتل اللوار غرب تور وعسكر بجيشه الى يسار الجيش الاسلامى بأميل قليلة بين نهرى كلين وفين فرعى اللوار . (يتبع)

